المحاضرة الخامسة

نقد الموءرخات الادبية

ذكرت لكم اليسير من العقاب التي يصعب قطعها على الذين يتصدون لوضع تاريخ الادب ، وقد خالج قلبي الرجوع الى هذا الموضوع وانتم لا تجدون ريباً في علو شأنه ، ورفعة مقامه ، وكفى بتاريخ ادبنا ان يكون عنواناً لحسنات قوم ذهبوا بين سمع الارض وبصرها ، فلم تبق من جلالة ملكهم وفخامة سلطانهم الا آثارها مدة ، اذا نحن اعملنا الروية فيها برزت لنا بلاغة منطق اهلها ، ورجاحة احلامهم ، وصحة عقولهم ، لم تبق من قوم ملؤا الدنيا وشغلوا الدهر الا صور جامدة اذا نحن ناجيناها اعربت لنا عما نسجته طباع الذين صوروها وسبكته افهامهم ، فرأيتم كيف درج صوغ اذهانهم في مواضي الليالي من طور الى طور ، وشهدتم اطراد عصورهم وما كان يتخلل هذه العصور من خلابة في الالسن ، او من تشديق وتقعير فينقلب بكم تاريخ ادبنا من عصور السهولة والايجاز الى عصور التكلف والتزيد ، ومن الاقتصاد في النظر الى التبسط في التفكير وعلى هذا يكون التاريخ صلة محكمة الاطراف محبوكة الوشي ، بين حاضر الخواطر وماضيها ، واذا استطعنا ان نؤلف بين الحاضر والماضي حافظت لغتنا على وحدتها وازدادت عظمة سلطانها .

نعم ، خالج قلبي الرجوع الى لبحث عن تاريخ الادب لان هذا التاريخ هو الذي ينزع بالنفس الى التمتع بآثار الاولين و يحمل رجال الادب على املاء قلوبهم من هذه الآثار ، فيطلعهم على دروج اصحابها من حال الى حال و ينبههم على توسعهم في اساليب شتى ومذاهب مختلفة ، كل عصر وله اسلوبه ، وكل دهر وله مذهبه ، وجملة المقال ان تاريخ الادب هو الذي يضيء لنا سبيل العقل البشري حتى ندرك آثار العبقرية في الاحقاب ، فنصل اواخرها باوائلها ، ومتى استحكمت هذه الصلة اتسعت افياء العبقرية .

هذا هو تاريخ الادب وهذه هي فعلته في الامم ، بقي ان نعرف كيف ينبغي لهذا التاريخ ان يكون حتى يعمل عمله هذا . جعل تاريخ الادب لاحياء آثار الماضي ورسومه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حتى تمثل الاذهان هذه الرسوم والآثار فتصبح بمحضر من اشخاص ناطقين ، يصورون لنا صوراً شتى ، في كل صورة منها فكر وشعور ، ينبغي لتاريخ الادب ان يكون فيه شيء من الحياة حتى يمثل لنا حقائق الآثار على وجوه متباينة ، فمرة نرى وضوح هذه الآثار وصفاءها ، ومرة لا نرى الا ابهامها وتعقيدها ، وحيناً نسمع خفيّ صوتها ، وحيناً لا نجد فيها الا الجمود ، ان تاريخ الادب هو الذي يبعث انواع هذه الآثار حتى تأخذ العين خصائصها وصفاتها ومحاسنها ومفاسدها وجمودها وحياتها وعلو قدرها وانحطاطه ، ومختلف الوانها ، ومتباين اساليبها ومذاهبها . ان تاريخ الادب هو الذي يبعث روحاً في هذه الآثار كلها مستعيناً على التمكن من احيائها بالفن وما أوتيه من سلطان ، فالفن وحده هو الذي يحيي ما بات من الرسوم . وخلاصة الامر اننا نطلب الى المؤرخ الأدبي ان لا يذهل عن شيء في تصوير صفحات التاريخ ، فلا ينبغي له ان يغفل عن تفاصيل الآثار وظروفها وعن الوانها ومعارضها وخصائصها .

فلنبحث بعد هذ كله هل كان عندنا تاريخ ادبي يستطيع ان يصورلنا حقيقة الماضي ، حتى نطلع على اطوار هذا الماضي وضروب اساليبه ومذاهبه ، اما المؤلفون في القديم فقد ذكرت لكم انهم لم يصنعوا شيئاً في تاريخ الادب واما المؤلفون في هذا العصر فما اظن انهم سبقوا المتقدمين في هذا الميدان ، وسننظر في ذلك في مجلسنا هذا ، اظن انكم ما تسيئم قولي : التاريخ الادبي انما هو سلسلة آثار ولم اقل مجموع آثار ، والفرق بين الجمع وبين التسلسل ظاهر ، فالآثار المجموعة ليست من تاريخ الادب في شيء وانما الآثار المطردة المتسلسلة هي التي تصورلنا الماضي ، الآثار المجموعة لا تدلكم الا على نتائج خواطر لا يتصل بعضها ببعض ، فلا تحيطون بشيء من تأثير عصر في عصر ، وتأثير مؤلف في مؤلف وانما الآثار المتسلسلة تصف لكم ارتباط عصر بعصر ، واتصال مؤلف بمؤلف فتشهدون سير العقل البشري وتنقله من حال الى حال ، ان ما وضع حتى اليوم من المؤرخات الادبية مجاميع لا سلاسل ، فان اصحاب هذه المجاميع اذا درسوا مؤلفاً من المؤلفين فانهم لم يدرسوا من تقدمه ولا نظروا في الذي جاء بعده ، انهم لم ينظروا في اواصر المصنفات وارتباطها بجملة التاريخ الادبي ، ان الذين كتبوا في تاريخ الادب كانت كتبهم مجاميع ولم تكن سلاسل مطردة ، فان كل عصر متصل بالذي سبقه وممهد السبيل للذي تلاه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تصفحت طائفة من كتب تاريخ الادب في هذا العصر، واحببت ان اجد فيها ما اصطلحوا عليه ان تكون اشباه هذه الكتب ، فلم اظفر بشيء وانما الذي تبين لي ان هذه المؤرخات الادبية مجاميع آثار فيها قليل من الدراسة الادبية والنقد الادبي ، ولكن هذه الدراسة مشوهة الاسلوب وهذا النقد مثلوم المذهب ، فلم تبين هذه المؤرخات الآثار التي ابقاها شاعر من الشعراء في اهل عصره ، ولم توضح العوامل التي عملت في هذا الشاعر حتى قال شعره ، ولا ذكرت كيف نشأ خيال هذا الشاعر ، وكيف نما حسه وشعوره ، لم تبين الظروف التي قال في خلالها شعره ، على اني اعتقد ان ذكر هذه الامور لا يتيسر في هذا العصر لمؤرخ ادبي ، وعلى التخصيص ذكر الروح الادبي والروح الفني في عصر من العصور ، لوعورة هذا المسلك وخشونة هذا المركب ، ولا يتهيأ شيء من ذلك الا بعد سنين طويلة فكتب تاريخ الادب في هذا العصر ليست من التاريخ في شيء وانما هي مجاميع مشتملة على قليل من دراسة الادب ونقده ، فلنبحث هل تشتمل في الحقيقة على شيء من هذه الدراسة وهذا النقد .

اخذت عرضاً تاريخاً ادبياً وضعه استاذ من اساتيذ الادب في مصر ، وكتب التاريخ قليلة ثلاثة او اربعة على ما اظن ، اخذت عرضاً هذا التاريخ وقرأت كلام صاحبه على المتنبيء حتى اعرف كيف حاول ان يبحث عن المتنبي ، ولم تكن غايتي الاستعانة بهذا الكلام ، فان الناقد الادبي يجب عليه ان يقرأ آثار المؤلف حتى يستطيع ان يبدي رأياً فيها ، فاذا استعان بكلام غيره على هذه الآثار لم يكن نقده نقداً ، قرأت الكلام على المتنبيء في هذا التاريخ لاطلع على أسلوب المؤرخ او على اسلوب الناقد على الوجه الاصح ، فوجدته بعد ان ذكر اليسير من اخبار حياته اشار الى منزلته في الشعر فحكم له وقال : لم يبلغ احد بعده بلغ غايته في الشعر ، الا اني كنت احب ان اعرف شيئاً عن نبوغ المتنبيء نفسه ، فلماذا لم يبلغ احد بعد المتنبيء ، فلم يبين الناقد السماء التي حلق فيها المتنبيء ، ولم تطاولها سماء ، ولا الافق الذي امتد اليه حسه ، ولا الصور التي صورها ، ولم يذكر شيئاً من شعور المتنبيء ودقائق هذا الشعور ، وهو العامل الاكبر في شعره ، ولا ذكر طبيعة هذا الشعور ولا اشار الى شيء من عاطفته ، ولا وضح طبيعة هذه العاطفة ، ولا بحث عن قلق المتنبيء واضطرابه وعن اسباب هذا القلق والاضطراب ، ولا اشار الى تناقض المتنبيء في اخلاقه ، ولا صور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لما مثله الاعلى في الحياة ولا ذكر هل كان هذا المثل مادياً ام معنوياً ، ولا تعرض لبعض نزعات المتنبي في الفلسفة ولا ابدى رأيه في خلود المتنبي ، هل يخلد ابو الطيب ، وما هو السبب في خلوده ، وفي الجملة فقد قرأت البحث عن المتنبي فلم تنشأ في ذهني صورة عامة ، قال المتنبي في كل الاغراض ، ما هي هذه الاغراض ، اجاد المتنبي في وصف المعارك ، ولكن اين مواطن الاجادة ، المتنبي في كلامه كثير من التعقيد اللفظي ، فاين مواضع هذا التعقيد ، قرأت هذا كله فلم تنشأ في ذهني صورة المتنبي العامة ، ولا صورة شعره ولا صورة حسناته ولا صورة سيئاته ، فلم اعرف شيئاً عن جملة حاله وشعره وأسلوبه .

فرغت من هذا التاريخ ، فأخذت تاريخاً غيره فوقع نظري عرضاً على بحث صاحبه عن ابي فراس الحمداني ، فتبين لي ان المؤلف قد استعان برأي الثعالبي في ابي فراس ، حتى انه لجأ في ذلك الى الفاظه نفسها ، فقال : ولما خرج قمر البيان من سراره ، واطلق اسد الحرب من اساره . وقال في موضع آخر في كلامه على شعر ابي فراس : شعره على مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً الا ان عليه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك ولم تجتمع هذه الخلال قبله الا في شعر عبدالله بن المعتز ، وهذا الكلام انما هو كلام الثعالبي نفسه ، اي امانة في نقد لم يقرأ صاحبه الاثر الادبي الذي ينقده ، اي روح في كلام لم يصدر عن قلب صاحبه ، فلو قرأ هذا المؤلف الاثر الادبي الذي ينقده لكان له رأي فيه خاص به ، مثل المصادر الادبية في تأثيرها في اذهاننا كمثل مشاهد الطبيعة في تأثيرها في حواسنا فكما ان هذه المشاهد قد تترك في حواس مصور آثاراً لا تتركها في حواس غيره من المصورين ، فكذلك المصادر الادبية فانها قد تترك في ذهن رجل آثاراً لا تتركها في ذهن غيره ، فيجب على الذي يتفرغ للنقد ان يقرأ الكلام الذي ينقده ، واما اذا ردد ما قاله غيره فلا تجد امانة في قوله ، فاذا كنا لا نزال نكرر آراء المتقدمين ونستعين على بحثنا بكلامهم نفسه ، او نشوه هذا الكلام في بعض الاحايين فكأننا لم نخط خطوة في الف سنة .

اكتفيت بهذا القدر من الاستشهاد لأبين لكم ان فريقاً من المؤلفين في الادب لا يزالون ينسخون في هذا الدهر اقوال المتقدمين ، فهم ينسحبون على اذيالهم في كتابة المؤرخات الادبية مع شيء يسير من التعديل ، على ان البحث عن مؤلف من المؤلفات في هذا العصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يختلف عما كان في القديم فقد استفاضت المناهج العلمية في دراسة الادب وشاعت مذاهب النقد وتبدلت الارض غير الارض والسموات واصبح هذا التطور علامة الحياة نفسها ، فلو اجتزأنا بآراء المتقدمين لجمدت القرائح ، ولنضبت الخواطر ، فان لكل ناقد أسلوباً ، وان لكل مؤرخ مذهباً ، وعلى قدر اختلاف هذه الأساليب والمذاهب يزداد رونق الأدب ، فاذا تشابهت فنون الكتابة نفرت الاذان عن كل مردد ، وانقبضت القلوب عن كل مكرر .

اما وقد أشرت الى بعض المطاعن في المؤرخات الادبية فلا ارى بأساً بان اتلو عليكم صفات المؤرخ الادبي على حسب ما حددها الاستاذ « فاكه » في كتابه : فن القراءة .

« يجب على المؤرخ الادبي ان ينسلخ من دخيلته[1] على قدر ما اعان عليه الامكان ، يجب عليه ان يتجرد منها كل التجرد ، فلا يجوز له ان يعرب عن الاثر الذي ابقاه في نفسه مؤلف من المؤلفين ، وانما ينبغي له ان يفصح عن الآثار التي ابقاها هذا المؤلف في اهل عصره وابناء زمانه ، فاذا كان يبحث عن عصر من العصور وجب عليه ان يبين روح هذا العصر العام على حسب مايعرف من تاريخه وان يوضح الروح الادبي والروح الفني في هذا العصر على قدر ما يعرف من التاريخ الادبي والتاريخ الفني ، يجب عليه ان يقيس — وهذا الامر يكاد يكون ممتنعاً — العوامل التي عملت في مؤلف من المؤلفين وان يبين كيف نشأ عقل هذا المؤلف بحسب الكتب التي قرأها في حياته ، وبحسب الرسائل التي كتبها ، وبحسب رأي اهل عصره فيه ، يجب عليه ان يبحث عن مجامع الظروف العامة التي كتب في خلالها ، ظروف قومه ، وظروف مكانه ، وظروف اهله ، وظروف شخصه . يجب عليه ان ينقب عن التأثير الذي اثره هذا المؤلف نفسه ، اي ان يذكر الرجال الذين راقتهم كتابته ، والرجال الذين لم تعجبهم هذه الكتابة ، فلا يجوز للمؤرخ ان يعرف الا الحوادث ولا ان يعلم غيره الا بهذه الحوادث نفسها ، و بروابطها ، فلا يحق للقاريء ان يعلم كيف يحكم هذا المؤرخ ، ولا يحق له ان يعلم انه يحكم ، لايجوز له ان يعرف انه يشعر .

---

(١) دخيلة الرجل مذهبه وجميع امره وقد استعملتها بدلاً من « الشخصية » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما الناقد الادبي فانه على خلاف المؤرخ فهو يبتدئ من حيث ينتهي المؤرخ الادبي ، انه على سطح هندسي غير السطح الذي ترى عليه المؤرخ الادبي ، فالذي يُطلب الى الناقد ان يبينه انما هو فكره في مؤلف من المؤلفين ، او في اثر من الآثار العقلية سواء أكان هذا الفكر صادراً عن عوامل عقلية ام كان صادراً عن هوائج نفسية ، فلا يطلب اليه ان يصوّر مخططاً وانما يطلب اليه ان يبين الآثار التي بقيت في النفس بعد سفر من الاسفار » .

دمشق : في ٧ كانون الاول سنة ١٩٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net